

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿بحث بعنوان﴾

معالم الرحمة في تنزيل القرآن الكريم.

كتبه راجي عفوره:

د / أبو أروى رضوان بن إبراهيم لخشين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

قسنطينة، الجزائر.

بحث معد للمشاركة في مؤتمر: (الرحمة في الإسلام)

جامعة الملك سعود الرياض المملكة العربية السعودية.

للتواصل: redlek21@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله المختص باسم الرحمن، أنزل القرآن وجعله رحمتان: رحمة في تنزيله، ورحمة في مضمونه، فقال في محكم تنزيله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين، من كان للأنبياء مسك الختام، وللناس رحمة من العليم العلام، عليه أفضل الصلاة والسلام، وبعد:

إن موضوع "الرحمة في الإسلام" لمن المواضيع التي تطرب لها القلوب والأسماع، وتهجم على الخاطر أفكارها، وتستحضر البصائر آثارها، ولكن سرعان ما يدرك الفهيم غفلته، وعجلته، إذ يرى الأيدي تعجز عن التسطير، والأنامل مرفوعة عن أضرار الحاسوب، حيرة، ودهشة، ماذا أكتب؟، ماذا أقول؟ أمر مهول أنت تقف أمام صفات ذي الجلال وآثارها، وأنت تعجز عن تصوّر بعضها، فضلا عن استيعابها، فصفاة الله من علمه فلا يحاط بها. وتزداد الحيرة إذا كان الكلام في أعظم رحمة، وأعظم منة امتن بها الله على عباده، نعمة: القرآن الكريم، كلامه العظيم.

كيف لا وهو كلام الجليل، كلام من أحاط بكل شيء علما، وأتقن كل شيء صنعا، أعجز كل الألسن بيانا، وأفحم كل العقول برهانا، بين فأعلم، وشرع فأحكم، أمر وزجر، ووعظ وذكر، وقضى فقدر، فله الحمد كله، والثناء كله. وربطاً لموضوع المؤتمر (الرحمة) بالقرآن الكريم، رأيت المناسبة في الكلام على أوجه الرحمة بتنزيله، بعد كثرة ما قيل في بيان أوجه الرحمة في مضمونه، فرأيت الموضوع طريفاً، وثقله خفيفاً، يناسب حالي، حال قليل الباع، مندرس الرباع، فأسرعت مهرولاً إلى كتب علوم القرآن والتفسير، أستجدي منها مادة الموضوع ومباحثه، وفروعه ومسائله، فخرجت منها بجملة من المباحث، عرضت على وفقها الموضوع فكانت على النسق الآتي:

تمهيد: بين يدي المباحث.

المبحث الأول: معالم الرحمة في تنزلات القرآن.

المبحث الثاني: معالم الرحمة في تنجيم القرآن وتفريقه.

المبحث الثالث: معالم الرحمة في المكي والمدني.

المبحث الرابع: معالم الرحمة في أسباب النزول.

المبحث الخامس: معالم الرحمة في المنسوخ والناسخ.

المبحث السادس: معالم الرحمة في نزول الأحرف السبعة.

خاتمة: لأهم النتائج والتوصيات.

وبعدها كشّاف لأهم المصادر والمراجع.

وإذ ترى أيها القارئ ما تقدم فلا أدعى سبقا في شيء منه قل أو كثر، ففضل السابق على اللاحق معلوم، كما أني أعتذر عن ما اعتري بعض المباحث من الركاقة، والعجلة، والقلة، فأسباب التقصير معلومة، غير أني حاولت الكشف حسب المقدور، ومثلي في مثله من مثلكم معذور، وأسأل الله العفو والمغفرة وهو الغفور، وهذا أوان الشروع في المراد، والحمد لله رب العالمين.

تمهيد: بين يدي المباحث.

القرآن الكريم كلام رب العالمين، الرحمن الرحيم، أبان فيه بعضا من رحمته الواسعة، والعديد من نعمه الواصلة، فلو لم يكن من رحمته إلا ربوبيته لكفى، فكيف وهو الذي اقترن من أسمائه الرحمن بالرحيم، وما اقترنا في أي الذكر الحكيم إلا في المقام العظيم، قال سبحانه في مقام تمجيد وحدانية ألوهيته، قال: ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ﴾ [البقرة]، وقال أيضا: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر].

وقال سبحانه في مقام الشروع والابتداء تنويها بشرف ما يُذكر وعظيم منزلته: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة]، ومن هذا الوجه اقترانها في البسملة في فاتحة سور القرآن، وفي افتتاح رسالة سليمان، عليه الصلاة وأزكى التسليم: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل]. وآخر مواضع ذلك الاقتران العظيم قوله سبحانه: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت]، فناهيك بالتزليل نعمة، وأعظم به منة، وهو المضاف إلى الرحمن الرحيم، دلالة على «أنه مناط المصالح الدينية والدنيوية»⁽¹⁾، «فإيثاره سبحانه لهاتين الصفتين على غيرهما من الصفات العلية للإيماء إلى أن هذا التزليل رحمة من الله بعباده»⁽²⁾، «فهو الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته، وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى، والنور والشفاء، والرحمة والخير الكثير، ما هو من أجل نعمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين»⁽³⁾.

هو رحمة من الله في مضمونه، فقد بينت سوره وآياته صُوف رحمته، وأنواعها، وأجناسها، وأسبابها وموانعها، وأوقاتها وصفات أهلها.

(1) - البضاوي، "أنوار التزليل"، (66/5).

(2) - الطاهر ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، (230/23).

(3) - السعدي، "تيسير الكريم"، (744). وانظر: "تفسير الفخر" الرازي (537/27 - 538)، و"روح المعاني" الآلوسي (348/12).

ورحمة منه سبحانه قبل ذلك بتزييله، فلولا تزييله لما عرف مضمونه، فلما كان مضمونه رحمة، كان تزييله رحمة، إلحاقاً للوسائل بالمقاصد في الأحكام، وقد أشارت إلى هذا المعنى آي الذكر العظام، من حيث الاقتران بين الرحمة وبين القرآن وتزييله، جمعتها هنا لمناسبة المقام:

فوصف الله سبحانه القرآن الكريم في آيات عدة بأنه (هدى ورحمة)، قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَهْدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: 157].

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ [الأعراف].

وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس]. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [النحل]. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ [النحل].

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ [النمل]. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ [لقمان]. ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الحجرات].

فهو «هدى من الضلالة»⁽¹⁾، و«بيان للحق وفرقان بين الصواب والخطأ»⁽²⁾، وهو «رحمة من العذاب»⁽³⁾، «لمن عمل به واتبعه»⁽⁴⁾، قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام].

وجملة (هدى ورحمة) قرنت بـ (المسلمين، والمؤمنين، والموقنين، والمحسنين)، إشارة إلى:

- أنهم هم الذين يصلون إلى الاهتداء به والرحمة به، وأن من لم يكونوا كذلك فقد حرموا الهدى والرحمة⁽⁵⁾.
- واختلافهم في التحقق بذلك بحسب مراتبهم في الدين ومقاماتهم فيه: (إسلاماً، وإيماناً، ويقيناً، وإحساناً)⁽⁶⁾.

(1)- السمرقندي، "بحر العلوم"، (496/1).

(2)- الطبري، "جامع البيان"، (243/12).

(3)- السمرقندي، "بحر العلوم"، (496/1).

(4)- الطبري، "جامع البيان"، (243/12).

(5)- قال ابن القيم: «اليقين هو الإيمان الجازم الذي لا ريب فيه ... واليقين أن يقوم الإيمان بها حتى تصير كأنها معاينة للقلب مشاهدة له» "رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه"، (20-21)، فاليقين أرفع مراتب الإيمان، ثم هل اليقين هو الإحسان؟ تحتاج إلى تأمل وبحث.

(6)- الطاهر ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، (8-ب/153).

وقال سبحانه مشيراً إلى ما في ترتيب القرآن من الرحمة بخلقه: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٦]. ﴿وَلَيْنَ شَيْئًا لَّنْذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٢٥]. ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُثْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]. ﴿أَنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُفُّوْا عَذَابِي ۝ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩].

وقال جل شأنه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ١٧]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَقْرَأَ مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ١-٦].

وأوضح ذلك وأجلاه قول ربنا جل في علاه، وتقدس في عالي سماه: ﴿حَمِّ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١]. ومزيداً في توطيد هذا الاقتراح، سمى الله سبحانه القرآن رحمة في آي الفرقان، ونص على ذلك أهل التفسير والبيان، كيجي بن سلام^(١)، وأبو هلال العسكري^(٢) وغيرهما^(٣).

فالقرآن كتاب الرحمة، واسمه الرحمة، مثله ربك ﴿الْفَخْرُ ذُو الرِّحْمَةِ﴾ [الأنعام: 133]، على نبي الرحمة، والمرسل بها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، ترتيبه رحمة، ومضمونه رحمة.

أوله الرحمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝﴾، وعند خاتمته تتزل الرحمة «إذا ختم القرآن نزلت الرحمة عند خاتمته»^(٤)، سماعه سبيل إلى الرحمة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ

(1) - في "التصارييف" (135/1 - 136).

(2) - في "الوجوه والنظائر" (227، 228).

(3) - ذكر جمع من أهل العلم كالسخاوي علم الدين، وابن تيمية، والفيروز آبادي، والبليهي، أن القرآن الكريم من أسمائه (الرحمة)، قال البليهي: «سماه رحمة في خمس عشرة آية»، انظر: "جمال القراء" للسخاوي (180/1)، و"أسماء القرآن الكريم"، لآدم بومبا، (26 وما بعدها).

(4) - أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (30541)، وأبو عبيد في "فضائل القرآن" (ص107)، والدارمي في "السنن" (3482)، والبیهقي في "الشعب" (2072)، وابن ضريس في "فضائل القرآن" (49، 81)، والفریابی في "فضائل القرآن" (87، 88)، وعزاه ابن حجر في "نتائج الأفكار" (176/3) لابن أبي داود ولم أجده في المطبوع. وصحح إسناده النووي في "الأذكار" (117)، وابن حجر في "نتائج الأفكار" (176/3)، ومحقق سنن الدارمي (2184/4).

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٣٤﴾ [الأعراف]، ومجلس قراءته، ومدارسته تغشاه الرحمة: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ... وَعَشِيََتْهُمْ الرَّحْمَةُ»⁽¹⁾،

هذه العبارات تضمنت إشارات إلى بعض علامات الرحمة في القرآن الكريم ومعالمها، ودلائلها المرشدة إليها، وأماراتها الدالة عليها، ومن هذه الوجهة اخترت لفظة المعالم في عنوان البحث: (معالم الرحمة في تنزيل القرآن)، فالمعالم جمع: «مَعْلَم، - وهو - الأثر ... والعَلَمُ أيضا العلامة، وما يُهْتَدَى به، ويستدل به»⁽²⁾، وهي «الدلالة والأمانة، ومنه معالم الأرض»⁽³⁾ أي دلائلها وأماراتها، ومنه «معالم الدين، دلائله»⁽⁴⁾.

واستكمالا لمفردات العنوان بيانا، فالقرآن الكريم كلام الله المنزل، أنزل إنزالا حقيقيا، وأكد ذلك توكيدا جليا فقال ربنا قولنا زكيا: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان]. فالتنزيل «مصدر من الفعل نَزَّلَ، لذا ناسب التأكيد به عليه»⁽⁵⁾، ثم سُمِّي القرآن الكريم لذلك تنزيلا⁽⁶⁾، باعتبار أن ألفاظه أنزلت من الله تعالى⁽⁷⁾، وقد دلت على هذا المعنى كثير من آي الذكر الحكيم منها:

قوله تعالى: ﴿طه﴾ مَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ ﴿طه﴾، وقوله تعالى: ﴿الم﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ [السجدة]، وقال سبحانه: ﴿يس﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ [يس].

وقال جل شأنه: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر]، وقال: ﴿حم﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ [غافر]، ﴿حم﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ [فصلت]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ

(1) - أخرجه مسلم (2699)، وأحمد (7427)، وغيرهما.

(2) - الحميدي، "تفسير غريب ما في الصحيحين"، (137/1)، قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" (88/4): «أصل ... يدل على أثر بالشيء يتميَّز به عن غيره».

(3) - ابن سيده، "المحصى"، (258/1).

(4) - ابن دريد، "جوهرة اللغة"، (948/2).

(5) - الطاهر ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، (71/1 - 72).

(6) - وعلى ذلك جمع من أهل العلم ك: السخاوي، وابن تيمية، والزرکشي، والفيروز آبادي، والسيوطي، وابن عاشور، وصالح البليهي وغيرهم كثير، وقال البليهي: «سُمِّي القرآن منزلا، وتنزيلا في اثنتين وأربعين آية»، انظر: "جمال القراء" (177/1) للسخاوي، و"أسماء القرآن الكريم" لآدم بومبا (26 وما بعدها)، وورد في السنة على قلة كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة...» أخرجه البخاري (5، 7086)، ومسلم (936)، وأحمد (3191).

(7) - يقال هذا لموافقة آي القرآن الكريم، واجتنابا لما قد توهمه العبارات الأخرى من عقائد منحرفة، كخلق القرآن والكلام النفسي، النفسي، مما قد يفهم من قول بعضهم: «أن ألفاظه أنزلت من السماء»، قال ابن تيمية رحمه الله: «فعلهم أن القرآن العربي منزل من الله، لا من الهواء، ولا من اللوح، ولا من جسم آخر، ولا من جبريل، ولا من محمد، ولا من غيرهما» "بيان تلبس الجهمية" (25/2)، والله أعلم.

لَكَتَبُ عَزِيزٌ ﴿١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٢﴾ [فصلت]، ﴿٣﴾ حَمَّ ﴿٤﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٥﴾ [الحاثية، والأحقاف].

وقال تعالى: ﴿٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ [الواقعة]، ﴿١١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ [الحاقة]

وآخر ذلك آية سورة الشعراء التي استجمعت أركان التزيل كلها، قال سبحانه: ﴿١٣﴾ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٥﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٦﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ [الشعراء]، (المترل، والمترل، والنازل به، والمترل عليه، والغاية من التزيل) ويلاحظ في هذه الآيات ما يأتي:

– جميع السور التي ورد فيها ذكر (التزيل) سور مكية، وفي ذلك وجه من وجوه إثبات كون هذا القرآن من الله سبحانه، بعدما كذب كفار مكة به، وأما أهل المدينة، أهل الإيمان فلم يكونوا في شك من ذلك.

– ورد في الآيات أنه ﴿١٨﴾ تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾، فهو تزيل ابتدأ منه كلاماً ولفظاً، وجاء أنه: ﴿٢٠﴾ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ فهو مترله، ومدبر أحوال نزوله.

– وتبعاً لهذه النقطة الأخيرة فقد اقترن بذكر التزيل جملة من أسماء الله تعالى منها:

أنه ﴿٢٢﴾ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ وهذا يتضمن، قوله تعالى: ﴿٢٤﴾ مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٢٥﴾.

أنه ﴿٢٦﴾ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢٧﴾، و﴿٢٨﴾ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢٩﴾، و﴿٣٠﴾ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣١﴾، و﴿٣٢﴾ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٣﴾، و﴿٣٤﴾ مِنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٣٥﴾، قال الشنقيطي: «قَدْ ذَلَّ اسْتِقْرَاءُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، عَلَى أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا، إِذَا ذَكَرَ تَنْزِيلَهُ لِكِتَابِهِ، أَتْبَعَ ذَلِكَ بَعْضُ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، الْمُتَضَمِّنَةِ صِفَاتِهِ الْعُلْيَا ... وَقَدْ تَكَرَّرَ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ، ذِكْرُهُ بَعْضُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، بَعْدَ ذِكْرِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، ... وَلَا يَخْفَى أَنَّ ذِكْرَهُ جَلَّ وَعَلَا هَذِهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى الْعَظِيمَةُ، بَعْدَ ذِكْرِهِ تَنْزِيلَ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، يَدُلُّ بَيَّضَاحٍ، عَلَى عَظَمَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَجَلَالَةِ شَأْنِهِ وَأَهَمِّيَّةِ نُزُولِهِ»^(١). ومن تلك الأسماء التي لها علاقة بالرحمة، اسمي الرحمن والرحيم، فتزيل القرآن له نصيب منهما، واسم الرب لما في معنى الربوبية من الرعاية والإنعام على المربوب بما يصلح حاله.

– دلت آية سورة الشعراء بلفظها على أركان التزيل، ودلت باللازم منها على أن للتزيل كيفية علم بعضها من نصوص الوحي كما سيأتي.

– أن التزيل في الآيات السابقة يأتي بمعناه المصدرى أي: (الإنزال) وطريقة إنزاله، ويأتي بمعنى المفعول أي: (المترل)^(٢)، وهو القرآن الكريم، «تسمية للمفعول باسم المصدر»^(٣).

(١) – الشنقيطي، "أضواء البيان"، (٣٥١/٦).

(٢) – قال ابن عاشور فاتحة سورة الزمر: «(تَنْزِيلٌ) مُصَدَّرٌ مُرَادٌّ بِهِ مَعْنَاهُ الْمَصْدَرِيُّ لَا مَعْنَى الْمَفْعُولِ» (٣١٤/٢٣)، وقال في موضع سور يس: «مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ أَخْبَرَ عَنْهُ بِالْمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي تَحْقِيقِ كَوْنِهِ مُنْزَلاً» (٣٤٧/٢٢).

(٣) – ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، (٢٤٨/١٢).

ومن كل ما تقدم يعلم المقصود من هذا البحث المعنون: (معالم الرحمة في تنزيل القرآن الكريم)، فالقرآن الكريم الذي جعله رب العالمين سبحانه رحمة لعباده، ونعمة من عظيم نعمه، ومنة من جزيل مننه، قد ظهرت علاماتها وأماراتها في عملية تنزيله، من حيث: أحواله، وأنواعه، وكيفيته، وأمكنته، وأزمنتته، تلك العلامات والدلائل والأمارات هي ما سيحاول البحث بيانه والكشف عنه.

المبحث الأول: معالم الرحمة في تنزلات⁽¹⁾ القرآن.

وصل القرآن الكريم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيا، وقبل ذلك كانت له أحوال أوضحتها آي التنزيل الحكيم، وهي ما يسمى أيضا بـ (تنزلات القرآن)، وقد اختلف في عددها، فمنهم من جعلها أربعة⁽²⁾ تنزلات،

ومنهم من جعلها تنزليْن اثنين فقط، ومنهم من جعلها ثلاثا كالاتي:

التنزل الأول: كون في اللوح في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝﴾ [البروج]، وهي دالة على الوجود الأول للقرآن الكريم في اللوح المحفوظ⁽³⁾، وبين ذلك في موضع آخر فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ۝﴾ [الزخرف]، ﴿وَإِنَّهُ ۙ﴾ أي هذا القرآن العربي كائن وموجود في ﴿أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا﴾ أي: اللُّوحُ الْمَحْفُوظُ⁽⁴⁾، وأضاف سبحانه ظرف (لدى) إلى نون عظمتة إيدانا باستكمال (أم الكتاب = اللوح) أحوال العظمة، والمنعة، والحفظ المقرر في آية سورة

(1) - عبر بعضهم بـ (وجودات)، وأكثر الكاتبين في هذا الموضوع، يقولون (تنزلات) كـ: السخاوي في "جمال القرء" (152/1)، والزرقاني في "مناهل العرفان" (39/1)، وصبحي الصالح في "مباحث في علوم القرآن" (51)، ومحمد بكر إسماعيل في "دراسات في علوم القرآن" (24)، ومحمد معبد في "نفحات في علوم القرآن" (19)، ومحمد الشايع في "نزول القرآن الكريم" (13)، ومصطفى ديب البغا في "الواضح في علوم القرآن" (46)، ونور الدين عتر في "علوم القرآن" (26)، ومحمد بازمول في "القراءات وأثرها في التفسير والأحكام" (17).

(2) - كمساعد الطيار في "الخرر في علوم القرآن"، (75-76)، وهو التنزيل السنوي: «يتزل إلى السفرة في ليلة القدر من كل سنة إبان بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ما سيترل عليه خلال السنة»، ونقل قول مقاتل بن سليمان رحمه الله في تفسيره.

(3) - وهو: (أم الكتاب) في قول جماعة من المفسرين، انظر: "معاني القرآن" للزجاج (309/5)، وتفسير السمرقندي (567/3)، وتفسير ابن أبي زمنين (116/5)، وعزاه لمجاهد رحمه الله مكي في "الهداية" (8188/12)، والواحدي في "البيسط" (398/23).

(4) - ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، (218/7)، وعزاه لابن عباس ومجاهد، وكذا قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝﴾ فسرته باللوح جمع من المفسرين: وهو قول ابن عباس وعطاء وعكرمة، كما في "البيسط" للواحدي (380/12)، وهو قول: «قتادة وابن زيد وابن جريج، وعليه أكثر أهل المعاني، وعامة المفسرين» كما في "الهداية" لمكي (3754/5)، وعزاه للمفسرين أيضا ابن الجوزي في "زاد المسير" (500/2).

البروج، والمؤكد في آية الواقعة⁽¹⁾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْأُمَّاتُ الْعُرُونُ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة]، فالكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ على قول بعض أهل التفسير⁽²⁾.

وقد نازع بعضهم في عد وجود القرآن الكريم في اللوح تنزلاً، بحجة أنه: «لم يرد لفظ التزول مقترناً به قط، وعلى هذا فلا ينبغي أن نسميه نزولاً، أو تنزلاً»⁽³⁾، ورغم عدم اقترانه بلفظ التزول فلا مانع من جعله نزولاً أو تنزلاً، كما عبر به أكثر الباحثين، فمما لا شك فيه عند أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه فوق جميع خلقه، واللوح المحفوظ أحد مخلوقاته فلا شك أن الله فوقه، والقرآن الكريم كلام الله وصفته، وبغض النظر عن كيفية إيجاد الله للقرآن في اللوح، فهو وجود في مخلوق الله سبحانه فوقه، ولازم ذلك أن يكون نزولاً وتنزلاً⁽⁴⁾، والله أعلم.

التزل الثاني: إنزاله جملة إلى السماء الدنيا، ودليله ظاهر الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر]، ﴿حَمَّ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَتٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان]، ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: 185]، فظاهرها دال على أنه أنزل كاملاً، في ليلة القدر المباركة، وهي إحدى ليالي شهر رمضان المبارك، ويدل لذلك ما صح عن ابن عباس⁽⁵⁾ رضي الله عنهما في قوله: «أنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة من الذكر الذي عند رب العزة حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا»⁽⁶⁾، وهذا لا يمنع أن يكون ابتداء الإنزال المنجم بغار حراء في

(1) - فسورة البروج قبل الواقعة كما هو صريح بعض الروايات، وما تشير إليه أخرى، انظر: "الإتقان" للسيوطي (42/1 - 43).

(2) - وقال آخرون هي الصحف التي بأيدي الملائكة على ما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١٠﴾ مِّنْ شَاءَ ذِكْرُهُ ﴿١١﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٢﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٣﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٤﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [عبس]، وهو اختيار ابن القيم من وجوه عدة عددها في كتابه "التيبان في أقسام القرآن" (226)، وقال آخرون هو المصحف الذي بأيدي المسلمين، وهذا القول أضعفها، والله أعلم.

(3) - أبو شهبة، "المدخل لدراسة القرآن"، (48)، وانظر: "نزول القرآن الكريم" لحمد عمر حويه (22)، و"نزول القرآن الكريم" للشايع (27).

(4) - وهو المعروف من معنى التزول في اللغة الدال «على هبوط شيء ووقوعه»، كما في "معجم مقاييس اللغة" لابن فارس (334/5)، وانظر كلاماً لابن تيمية في "المجموع" (257/12) في هذا المعنى.

(5) - قال ابن تيمية في "المجموع" (126/12): «وغيره من السلف» كسعيد بن جبير، والربيع بن أنس رحمهما الله، انظر: "السنن" لسعيد بن منصور (293/2)، "الدر المنثور" للسيوطي (399/7، 567/8)، وسفيان الثوري كما في "معجم ابن المقيس" (355).

(6) - ورد هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما من عدة طرق، وبألفاظ متقاربة، تشترك في إثبات التنزل الجملي للقرآن الكريم إلى بيت العزة، وقد خرجه بتوسع محمد بازمول في كتابه "القراءات وأثرها..." (19 - 22)، وصحح هذا الأثر جمع من الأئمة ك: الحاكم في "المستدرک" صححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه ابن كثير، والزركشي، والسيوطي، وقال ابن النحاس في "إعراب القرآن": «وأما الحديث في تنزيل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر فصحيح غير مدفوع عند أهل السنة وإنما يدفعه قوم من أهل الأهواء» (165/5).

وابن عباس رضي الله عنهما يخبر عن أمر غيبي لا تبلغه العقول فله حكم الرفع، ومتعلق بالقرآن الكريم، فلا تعلق للإسرائيليات بذلك، وصح عنه في البخاري (2539) عدم الأخذ عنهم في أمور الدين مطلقاً، وجعل القرطبي هذا التنزل: «لا خلاف» فيه (297/2).

ليلة القدر⁽¹⁾، فيتفق في ليلة القدر التزل الجملي، وبداية الفرق، قال علم الدين السخاوي رحمه الله: «وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يشمل الإنزالين»⁽²⁾.

التزل الثالث: نزوله مفردا ومنجما، ودليله في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء، ١٠٦]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان، ٣٢]، وآيات أخرى يأتي ذكرها في المبحث الآتي.

هذه التزلات الثلاث، يهمنها منها الأول والثاني، من حيث تلمس معالم الرحمة فيهما، على ضوء ما فيهما من حكم، فمما يذكر لهماذين التزتين الجمليين:

أولا: محض التفضل والإنعام، بالتعليم والإعلام، باستقرار القرآن في سابق علم الرحمن سبحانه، ثم حفظه له مسطورا في ديوان عظيم، محفوظ كريم، عظيم الخلق، حوى ما جل ودق، فليس إلى هذا من سبيل، إلا بإعلام الجليل.

ثانيا: لا يخفى على كل عارف ما في ذلك من عظيم مقامات الإيمان، وهو يرى بعين بصيرته تلك العوالم الفوقية، والملكوت العلوي، وما أجراه الله فيه، تمهيدا لما سيزل إليه من خير دينه ودنياه.

ثالثا: إن كون القرآن الكريم في اللوح (المحفوظ)، والكتاب (المكنون)، وبيت (العزة)⁽³⁾، مؤذن ببالغ حفظ الله تعالى له، وعظيم صيانه، عن كل شيطان مارد، أو جني عفريت، وذلك من عظيم الرحمة والمنة، لما يضيفه على قلب العبد من الطمأنينة المطلقة⁽⁴⁾.

رابعا: أن «في تعدد التزل، وأماكنه مرة في اللوح، وأخرى في بيت العزة، وثالثة على قلب النبي صلى الله عليه وسلم: في ذلك التعدد مبالغة في نفي الشك عن القرآن، وزيادة للإيمان، وباعث على الثقة فيه»⁽⁵⁾. خامسا: وأما إنزاله إلى السماء الدنيا جملة: فـ «في ذلك تكريم بني آدم، وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله عز وجل بهم، ورحمته لهم»⁽⁶⁾.

(1) - قال ابن كثير: «والمشهور أنه بعث عليه الصلاة والسلام في شهر رمضان كما نص على ذلك عبيد بن عمير، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما» "السيرة النبوية" (392/1). وقال ابن حجر: «وابتداء وحى اليقظة كان في رمضان» "فتح الباري" (37/1)، و(57/9)، (43/1)، واختار صاحب "الرحيق المختوم" (56) - بحثا وتحقيقا - أنه في اليوم الحادي والعشرين من رمضان.

(2) - السخاوي، "جمال القراء"، (22/1 - 23)، وانظر: "فتح الباري" لابن حجر (5/9).

(3) - ثلاثتها من الصفات الدالة على بالغ الصيانة والرعاية والحراسة فـ «إذا كان القرآن في لوح، وكان اللوح محفوظا، فالقرآن محفوظ أيضا» "الحجة للقراء السبعة" لأبي علي الفارسي (7/6). ومكنون: أي «مصون عند الله لا يمسه شيء من أذى» "جامع البيان" (149/23)، والبيت أضيف للعزة لاستكمال معانيها من قوة وشدة وقهر، ورفعة وشرف ومنعة، وما في معناه انظر: "معجم المقاييس" لابن فارس (38/4).

(4) - علي بن سليمان العبيد، "حفظ القرآن الكريم"، (9).

(5) - الزرقاني، "مناهل العرفان"، (42/1).

(6) - السخاوي، "جمال القراء"، (153/1).

سادسا: و«فيه تفخيم لأمره، وأمر من أنزل عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب، المتزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لنترله عليهم»⁽¹⁾، وفي ذلك من منة الله على خلقه ولطفه بهم ولهم، ما هو ظاهر.

سابعا: وفي وقوع هذا التزليل جملة إكرام وإنعام على نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى أمته لئلا تعلوها أمة من الأمم في شأن من الشؤون، فجمع لها الإنزال جملة وتفصيلا⁽²⁾، جملة كسائر الأمم قبلها، وتفريقا وتنجيما مزيدا في الاعتناء والامتنان عليها.

ثامنا: وقوع هذا التزليل في ليلة القدر المباركة، فيه مزيد امتنان وفضل وإنعام من الرحمن، لما فيه من الاصطفاء بعد الاصطفاء، فقد اصطفى خير كتبه خير الأوقات والليالي إنزالا، وخير البشرية إرسالا، قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، فـ «عظم القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها: أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصا به دون غيره، ...، والثالث: الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه»⁽³⁾، وقال السعدي: «يقول تعالى مبيّنا لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ وذلك أن الله تعالى، ابتداء بإنزاله في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة...»⁽⁴⁾.

تلك بعض ما في دينك التزليل من أوجه الرحمت، مما فتح به رب البريات، لنصرف القول بعدها إلى الكلام في ثالثها، في المبحث التالي:

المبحث الثاني: معالم الرحمة في تنجيم القرآن وتفريقه.

تزيل القرآن منجما ومفرقا مقرر في الآيات القرآنية، تصريحاً وإشارة، وقد تقدم ما يدل لذلك صراحة، ونتبعه بما هو إشارة⁽⁵⁾، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: 106]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ [النساء: 140]، وقوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164]، وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَذَا تُنْتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِي أَلَّا يَرْجُوتَ لِقَاءَنَا أَنتِ يَقْرَءِينَ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فُلٌ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّايَ نَفْسِي﴾ [يونس: 15]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

(1) - أبو شامة، "المرشد الوجيز"، (24) وانظر: "البرهان" للزركشي (230/1)، و"الإتقان" للسيوطي (149/1).

(2) - السنخاوي، "جمال القراء"، (154/1)، أبو شامة، "المرشد الوجيز"، (24). وفيه بحث سياقي.

(3) - الرمخشري، "الكشاف"، (780/4)، وانظر: "مفاتيح الغيب" للرازي (228/32)، و"أنوار التزليل" للبيضاوي (327/5).

(4) - عبد الرحمن السعدي، "تيسير الكريم الرحمن"، (931).

(5) - قال الرازي في "تفسيره": «﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ وَتَوْصِيلُ الْقَوْلِ هُوَ إِثْبَانُ بَيَانٍ بَعْدَ بَيَانٍ، وَهُوَ مِنْ وَصَلَ الْبَعْضَ بِالْبَعْضِ، وَهَذَا الْقَوْلُ الْمُوَصَّلُ يَتَحَمَّلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ مُنْجِماً مُفَرَّقاً يَتَّصِلُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ...» (607/24).

ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٧٧﴾ [الحجر]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل:118]، وغيرها من الآيات، وأما دلائل ذلك من السنة والسيرة النبوية فأكثر من أن تحصر، بل هو مما تجمع عليه أمة الإسلام فضلا عن علمائها.

وقد أوضحت آيات القرآن الكريم بعض كيفية هذا التنزيل فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٌ﴾ [الشورى]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء]، وقال ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩٥﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿١٩٦﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿١٩٧﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الحاقة].

فالقرآن الكريم وحي رب العالمين، بواسطة جبريل الأمين، على قلب سيد المرسلين، يُوحى الرحمن ما يشاء من وحيه، على ما تقتضيه حكمته وربوبيته، فيحفظه الأمانة بفضل ومنة من الرحمن، ولولا رحمته لما كان لهما ذلك في الإمكان، ثم يتلوه الصادق الأمين، ويتلو التلاوة بالتبيين، لتقوم حجة الله على الثقلين.

نزل القرآن منجما على الحبيب صلى الله عليه وسلم مدة نبوته ورسالته، على اختلاف الأزمان والأحوال، كان نتاج استقصائها، وتبعتها وتأملها، أنواعا وأفنانا من علوم القرآن، منها:

(المكي والمدني، الحضري والسفري...) إلى النوع السادس عشر من أنواع علوم القرآن التي ذكرها السيوطي⁽¹⁾ رحمه الله في "الإتقان"، ومن كل نوع من تلك الأنواع لاحت جليلة معالم الرحمة والامتنان، من الرحيم الرحمن، على جيل التنزيل من الأنصار والمهاجرين، وعلى من بعدهم من المسلمين، وهو ما سأحاول تتبعه ذا الحين، في النقاط الآتية:

أولا: إن من عظيم منة الله على نبينا صلى الله عليه وسلم أن اصطفاه لنفسه، وجعله من بين سائر البشر رسول وحيه، للعالمين بشيرا ونذيرا، وقال سبحانه مبينا رحمته على نبيه إذ أوحى إليه: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:86]، أي «إلا أن ربك رحمك فأنزل عليك»⁽²⁾.

ثانيا: إن ابتداء التزل المفروق ليلة القدر المباركة رحمة من الله، ومزید إنعام منه، على ما سبق بيانه آنفا.

ثالثا: لما كان وحي الله لنبيه بواسطة الرسول الملكي جبريل، كان في ذلك مزيد رحمة وإنعام على نبينا صلى الله عليه وسلم وأمته، إذ لم تكن للأمم قبلها مزية فوقها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبينا

(1)- في الإتقان (27/1 - 28)، وهي: (النهارى والليلي، الصيفي والشتائي، الفراشي والنومي، الأرضي والسماوي، أول ما نزل وآخر ما نزل، أسباب التزل، ما نزل على لسان بعض الصحابة، ما تكرر نزوله، ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر نزوله عن حكمه، معرفة ما نزل مفردا وما نزل جمعا، ما نزل مشيعا وما نزل مفردا، ما أنزل منه على بعض الأنبياء وما لم يزل منه على أحد قبل النبي صلى الله عليه وسلم، في كيفية إنزاله).

(2)- الفراء، معاني القرآن، (2/313)، وانظر: "جامع البيان" للطبري (19/642).

هذا المعنى: «وَمَنْ قَالَ: إِنَّ جِبْرَائِيلَ أَخَذَهُ عَنِ الْكِتَابِ، لَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ مِنْ وُجُوهٍ. مِنْهَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ كَتَبَ التَّوْرَةَ لِمُوسَى بِيَدِهِ؛ فَبَنُو إِسْرَائِيلَ أَخَذُوا كَلَامَهُ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ، وَمُحَمَّدٌ عَنْ جِبْرِيلَ عَنِ الْكِتَابِ فَهُمْ أَعْلَى بَدْرَجَةٍ»⁽¹⁾، وهو لازم باطل فدل على بطلان المزوم، فبيننا صلى الله عليه وسلم أعلا درجة لما كان وحي الله إليه بواسطة ملك الوحي فقط.

رابعا: إن في تنزله مفردا بعد نزوله جملة مزيد إنعام على نبينا صلى الله عليه وسلم وأمته، وتفضيلا لها على غيرها من الأمم بإنزاله جملة، ورحمة بها في تنزيله منجما⁽²⁾.

خامسا: قد حفظ الله سبحانه السماء الدنيا إذ أوحى إلى خاتم رسله، خاتمة كتبه⁽³⁾، فبعدما كان في السماء الدنيا مقاعد يُقعد فيها لاستراق السمع، جعل الله نجومها شهابا مرصداً للشياطين، فقال رب العالمين: ﴿إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوكِبِ ۖ وَحَفِظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۖ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۚ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۚ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ۝﴾ [الصافات]، وهو من مظاهر حفظ الله تعالى لكتابه، التي شملها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾ [الحجر]، «حَفِظَهُ اللَّهُ مِنْ أَنْ تَزِيدَ فِيهِ الشَّيَاطِينُ بَاطِلًا أَوْ تَنْقُصَ مِنْهُ حَقًّا»⁽⁴⁾، وذا من أعظم رحمت الله على خلقه أن تولَّى هو سبحانه حفظ كتابه.

سادسا: ما جاء صريحا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ ۖ كَانَ أَنْزَالُهُ مَفْرُوقًا، لِنُتَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ﴾، في كل مرة ينزل عليك، ﴿وَرَزَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝﴾ [الفرقان]، وهذا من جميل رحمة الله بعبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، قال أبو شامة: «فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه»⁽⁵⁾.

سابعا: أن في تنجيم القرآن وقراءته صلى الله عليه وسلم له على المؤمنين على مكث، مزيدا من التشييت لهم على أمور الدين والشريعة، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ۝﴾ [النحل]، «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ لِيُثَبِّتَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى الْإِيمَانِ بِأَنَّهُ كَلَامُهُ، وَأَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا النَّاسِخَ وَتَدَبَّرُوا مَا فِيهِ مِنْ رِعَايَةِ الصَّلَاحِ وَالْحِكْمَةِ رَسَخَتْ عَقَائِدُهُمْ وَاطْمَأْنَنَتْ

(1) - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (224/15)، وفي هذا أيضا إبطال لقول من قال إن ابتداء التنزيل المنجم كان من بيت العزة.

(2) - سواء أكان التنجيم من خصائص هذه الأمة على قول بعضهم، أم كان من خصال الشرائع جميعها.

(3) - علي بن سليمان العبيد، "جمع القرآن الكريم"، (10).

(4) - القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، (5/10).

(5) - أبو شامة، "المرشد الوجيز"، (28).

قلوبهم»⁽¹⁾، وليشتهم «بما فيه من الحجاج والآيات»⁽²⁾، و«ليحفظ قلوب الذين آمنوا على الإسلام... ولتطمئن إليه قلوب الذين آمنوا، وهُدَى من الضلالة وبُشِّرَى لِلْمُسْلِمِينَ بِالْجَنَّةِ»⁽³⁾، وكل هذا من صنوف نعمه على عباده، ورحمته بهم.

ثامنا: إن في تنزيل القرآن الكريم منجما ومفرقا مزيدا من التواصل بين الرسولين، وهذا مما يُسرُّ به كل واحد منهما، فقد كان كل منهما يشناق للآخر، حتى قال صلى الله عليه وسلم: «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا، فترلت: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مریم:64]»⁽⁴⁾، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لما أبطأ عليه جبريل: «يَا جَبْرِيلُ مَا نَزَلْتَ حَتَّى اسْتَقْتُ إِلَيْكَ، قَالَ -جبريل- أَنَا كُنْتُ أَشَوْقَ إِلَيْكَ وَلَكِنِّي مَأْمُورٌ»⁽⁵⁾. فقد كان صلى الله عليه وسلم يُروِي مرة بعد مرة شوقه إلى جبريل بهذا النزول المتواصل، ولو نزل القرآن جملة لما كان ذلك، وإلى هذا المعنى أشار أبو شامة بقوله: «ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه، وتجديد العهد به، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناح العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة»⁽⁶⁾، فإنه «إِذَا شَاهَدَ جَبْرِيلَ حَالًا بَعْدَ حَالٍ يَقْوَى قَلْبُهُ بِمُشَاهَدَتِهِ فَكَانَ أَقْوَى عَلَى أَدَاءِ مَا حُمِّلَ، وَعَلَى الصَّبْرِ عَلَى عَوَارِضِ الثُّبُوتِ وَعَلَى احْتِمَالِهِ أَذِيَّةَ قَوْمِهِ وَعَلَى الْجِهَادِ»⁽⁷⁾. وكذلك كانت حال جبريل عليه السلام ولا شك.

تاسعا: ويتبع ذلك أن في تفريق نزول القرآن الكريم تفريقا لما تضمنته آياته من التكاليف والأحكام، قال سبحانه ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقًا لَهُ لِيَتَقَرَّاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّنٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ف«لَوْ أُنْزِلَ الْكِتَابُ جُمْلَةً وَاحِدَةً عَلَى الْخَلْقِ لَنَزَلَتِ الشَّرَائِعُ بِأَسْرِهَا دُفْعَةً وَاحِدَةً عَلَى الْخَلْقِ فَكَانَ يَثْقُلُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، أَمَّا لَمَّا نَزَلَ مَفْرَقًا مُتَجَمًّا لَا جَرَمَ نَزَلَتِ التَّكَالِيفُ قَلِيلًا قَلِيلًا فَكَانَ تَحْمِلُهَا أَسْهَلًا»⁽⁸⁾، وهو من عظيم رحمة الله بخلقه ولطفه ورأفته بهم.

(1)- البضاوي، "أنوار التنزيل"، (240/3).

(2)- القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، (177/10).

(3)- السمرقندي، "بحر العلوم"، (292/2)، وانظر: "التفسير" لابن كثير (603/4).

(4)- أخرجه البخاري (3064، 4454، 7017).

(5)- أخرجه الطبري في "جامع البيان" (223/18) من طريق قتادة به، وابن أبي حاتم في "تفسير" (2414/7) من طريق عكرمة، عزاه في "فتح الباري": لـ «عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ» (429/8)، وكذا في "الدر المنثور" (530/5)، وهو حديث مرسل، وقال ابن كثير في "تفسيره": «وَهُوَ غَرِيبٌ» (274/9)، وحسن حكمت بشير طريق قتادة في "الصحيح المسبور" (345/3)، وانظر: "فتح القدير" للشوكاني (345/3).

(6)- أبو شامة، "المرشد الوجيز"، (28).

(7)- الرازي، "مفاتيح الغيب"، (457/24).

(8)- الرازي، "مفاتيح الغيب"، (457/24).

عاشرا: إن في تفريق آي الذكر تنزيلا لتيسيرا لحفظه على الأمة، وهو من معاني الآية السابقة، خاصة على قراءة من قرأ (فَرَّقْتَهُ)⁽¹⁾، «ولا شك أن تفريق النص الذي يراد حفظه يُيسر الأمر على من يريد أن يحفظه»⁽²⁾، فقد أنزل الله القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم مفرقا ليقراه على المؤمنين على مهل وترسل، ولـ«تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين»⁽³⁾، فسبحان من شمل تنزيله للقرآن مفرقا كل هذه الرحمت، والحكم والنعم والمسرات.

المبحث الثالث: معالم الرحمة في المكي والمدني.

نزول القرآن منجما، واستمرار الوحي الرباني بحسب الوقائع والأحوال، ثم بداية الدعوة بمكة، وانتشارها في البلدان، وكذا الهجرة وما نتج عنها من استقرار الكيان الإسلامي بالمدينة، كل ذلك كان سببا في تنوع مواضع نزول القرآن الكريم وموضوعاته⁽⁴⁾، فأما مواضعه فأكثر من أن تعد أفرادها، وأما أنواعها فهي: (عقيدة وشريعة وقصص).

فأما مواضعه فكان منه المكي والمدني، السفري والحضري، النهاري والليلي، الصيفي والشتائي، الفراشي والنومي، الأرضي والسماوي، أول ما نزل وآخر ما نزل، ويجمعها جميعا (علم المكي والمدني)⁽⁵⁾. علم مكي القرآن ومدنيه من العلوم الجليلة، والمعارف النبيلة، ذو أهمية بالغة لمعاني معاني التنزيل، وضرورة لازمة لمستنبط أحكام القرآن بالنظر والتأويل، ولذا كان كلام أهل العلم في بيان فائدته غير قليل. تضمنت مباحثه أفنانا وارفة، ووفى بمعارف واسعة وفاء: "جعل بحوثه أشتاتا وألوانا، فهو في آن واحد ترتيب رباني، وتحديد مكاني، وتبويب موضوعي، ويقين شخصي"⁽⁶⁾. وقد عُلم لدى الدارسين أن في تحديد معنى المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة، لها باطن، وظاهر:

(1) - قال ابن جني: هي «قراءة علي وابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم والشعبي والحسن بخلاف وأبي رجاء وقتادة وحيد وعمرو بن فائد وعمر بن ذر وأبي عمرو بخلاف» «اختسب في القراءات الشواذ» (23/2)، وانظر: "الجامع" للقرطبي (339/10)، و«القراءات الشاذة وتوجيهها» لعبد الفتاح القاضي (549).

(2) - غانم قدوري، «محاضرات في علوم القرآن»، (33)، وهل من ذلك تيسير حفظه على النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكره بعضهم كـ: أبي شامة في «المرشد» (28)، والزمخشري في «الكشاف» (283/3)، وغيرهما؟ الظاهر عدم ذلك فقد صرح القرآن أن حفظ الوحي مكفول للنبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿سَقَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى]، و (لا) هنا نافية، بمعنى أنك تحفظه ولن تنساه، وليس أدل على ذلك أيضا من حفظ آدم للأسماء كلها التي علمه الله إياها دفعة واحدة، والله أعلم.

(3) - الطاهر ابن عاشور، «التحرير والتنوير»، (231/15)، وانظر: «أضواء البيان» للشنقيطي (188/3).

(4) - انظر: «المعجزة الكبرى» لأبي زهرة، (19).

(5) - انظر: «الإتقان» السيوطي، (28/1).

(6) - صبحي الصالح، «مباحث في علوم القرآن»، (167).

ظاهرها اختلاف في العبارة والاعتبار، بين مكان النزول وزمانه وتوجه الخطاب، وهي اتفاق على التدقيق والتحقيق⁽¹⁾.

وباطنها الرحمة الإلهية الواصلة للبعيد، والمتواصلة على استمرار الزمان القريب والبعيد، باطنها الرعاية الربانية بما أنزله روحا وأمرأ، بمكة والمدينة قبل الهجرة، وبعدها دينا وشرعا، نهيأ وأمرأ، رحمة امتزجت بحكمة فأخرجت في مخاض عسير أحوال المسلمين من ضيق وذل وشقاء وابتلاء إلى فسحة دين وعزة ونقاء وارتقاء، يصحبهم في هذا وذاك قرآن مكة والمدينة بخصائص معلومة فيهما.

تلك الخصائص التي يلحظ فيها الناظر مزيد الاعتناء الرباني، والعطاء الإلهي المعين على نوائب الزمان، والقامع للأعداء في كل مكان، ففي ظل السيطرة القرشية الظالمة المعاندة، يأتي القرآن المكي قوي البيان والعبارات، قصير المقاطع والآيات، واصلا بإيجازه إلى المسامع النافرات، شديد الزجر لتكذيبهم، قوي التحدي لفصاحتهم، دامغا لاعتراضهم، بالغ الحجة ناصع المحجة، تصحيح للعقيدة، ورسم لمعالم الشريعة، إلقاء لصحيح العقول إلى الحق، بقص القصص الصدق، داعيا إلى المكارم والفضائل، وجهيل الخصال والشمائل.

ليأتي بعده القرآن المدني، غير بعيد الخصائص عنه، وغلب عليه إطناب آياته بلاغة، إيضاحا وبيانا للأحكام الشرعية، والأحوال التعبدية، والحدود الردعية، حث على دعوة الناس باللسان والسنان، وأيد المؤمنين على أهل الكتابين والمنافقين، فعرف منهم الأقوال والأفعال، وفصح منهم كل حال، ثم يكون به حسن الختام، إيذانا باكتمال الدين على التمام، لجميع الأزمان، وكافة الأنام.

فأين عين البصيرة عن تلك الرحمات:

ففي قصر آيات المكي رحمة لما في ذلك من يسر قراءة، وسهولة حفظ، وقوة إعجاز، وفصاحة إيجاز⁽²⁾. وفي طول آيات المدني مثلها، وقوة تأصيل، واستطراء تفصيل، إطناب وإسهاب، تلذذا وأجرا بآي الكتاب.

وفي هذه وتلك أمثالهما، برسم سبيل الدعوة إلى الله تعالى التي: «تحتاج إلى نهج خاص في أسلوبها إزاء كل فساد في العقيدة، والتشريع والخلق والسلوك، ولا تفرض تكاليفها إلا بعد تكوين النواة الصالحة لها، وتربية اللبنة التي تأخذ على عاتقها القيام بها، ولا تسن أسسها التشريعية، ونظمها الاجتماعية إلا بعد طهارة القلب، وتحديد الغاية حتى تكون الحياة على هدى من الله وبصيرة»⁽³⁾، وإلى هذا المعنى تشير السيدة عائشة

(1) - قال مساعد الطيار: «والمقصود هنا التنبيه على أنه لا تعارض بين مذهب السلف في التعبير عن النزول بالمكان، وما ذهب إليه المتأخرون من العلماء من أن ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني؛ لأن السلف كانوا يعتبرون بذكر المكان، ويعملون بالزمان في تطبيقاتهم التفسيرية» "الخرر في علوم القرآن" (105).

(2) - محمد بكر إسماعيل، "دراسات في علوم القرآن"، (49-50).

(3) - مناع القطان، "مباحث في علوم القرآن"، (49)، أشار إلى هذا المعنى أيضا من التدرج في الدعوة: الزرقاني في "مناهل العرفان" (167/1)، وأبو شهبه في "مدخل لدراسة القرآن" (219).

رضي الله عنها حين قالت: «... إنما نزل أول ما نزل منه -أي من القرآن- سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لا تزنا لقالوا: لا ندع الزنا أبدا، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب: ﴿بِئْسَ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ ﴿٦٦﴾﴾ [القمر] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»⁽¹⁾. أشارت إلى الرحمة الربانية، و«الحكمة الإلهية في ترتيب الترتيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللکافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام ...»⁽²⁾. فمكي القرآن ومدنيه «يهدي سير النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه خطوة خطوة نحو .. الهدف، وهو يحوطهم كل لحظة بالعناية الإلهية المناسبة، فهو يعزز جهودهم، ويقوي إرادتهم، حتى تكلل ذلك الكفاح بالنصر المبين، فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التي نهض بأعبائها الإسلام لا سر لها إلا في هذا التنجيم»⁽³⁾.

ومن توابع موضوع المكي والمدني، معرفة أول ما نزل، وآخره، وما انطوى تحتها من معالم للرحمة، وهما وجهة ما يأتي من كلام:

فأما أول ما نزل⁽⁴⁾ على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم حراء فقولته تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق]، وفي هذا الاستفتاح الإلهي براعة استهلال⁽⁵⁾، لتلك الصلة العظيمة بين الأرض والسماء، و«إشادة بالقلم وخطره، وبالعلم ومزلقته في بناء الشعوب والأمم، فما أصدقها من طلائع تجعل العلم والمعرفة من أخص خصائص الإنسان»⁽⁶⁾، فيه أرشد من العمى، ومن الضلالة هدى.

كما تجسد فيها «تصوير حي لأضخم حدث في تاريخ البشر شهدت به الإنسانية نفسها تولد ميلاد جديد يصلها بالسماء وأسرارها ولا يلصقها بالأرض وأوحاها، فيوجه المقطع الأول من هذه السورة محمد رسول الله إلى الاتصال بالملا الأعلى والقراءة باسم الله، فمنه المنشأ وإليه المصير، وهو الذي كرم الإنسان

(1)- أخرجه البخاري (4707، 4595)، وغيره.

(2)- ابن حجر، "فتح الباري"، (40/9).

(3)- غانم قدوري، "محاضرات في علوم القرآن"، (33).

(4)- وهو قول الجمهور، ويكاد يكون إجماعا، انظر: "الإتقان" للسيوطي (91/1)، و"الحرر" لمساعد الطيار (79-82).

(5)- الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، (435/30).

(6)- أبو شهبه، "السيرة النبوية"، (260/1). و"علوم القرآن" للعتري (36)، و"تيسير التفسير" لإبراهيم القطان (441/3).

بتعليمه أسرار الوجود، وتمكينه من استعمال "القلم" رمز العلم والتعليم،...»⁽¹⁾، «فله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرّون لها على جزاء ولا شكور»⁽²⁾.

وأما آخر ما نزل⁽³⁾ فقلّله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة]، وفيها من براعة الاختتام، أبلغه وأتمه، رحم الجليل سبحانه عباده فذكرهم بتقواه، وحثهم على العمل بما يرضاه، وأعد لهم الجزاء الأوفى، ووعدهم المغفرة وعدم الظلم ووعد موافقته.

رحمهم بتاء الخطاب تذكيراً، ورحمهم بياء الالتفات توقيراً، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ﴾⁽⁴⁾ فيه إلى الله، «رفقاً من الله سبحانه بصاحبي عباده المطيعين لأمره. وذلك أن العود إلى الله للحساب أعظم ما يخوفه ويتوعد به العباد، فإذا قرئ: ﴿تُرْجَعُونَ...﴾ فقد خطبوا بأمر عظيم...، فكأنه تعالى انحرف عنهم بذكر الرجعة فقال: ﴿يُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾»⁽⁵⁾، جميعاً، أبرار وفجاراً.

تلك بعض جوانب الرحمة في المكي والمدني من القرآن وتوابعهما، والمتأمل ممن فتح الله عليه يكشف له ما هو أكثر، وفوق كل ذي علم عليم.

المبحث الرابع: معالم الرحمة في أسباب النزول.

ووجه ارتباطه بما قبله أن تنزل القرآن الكريم جملة ومنجماً، مكيًا ومدنيًا، لم يكن إلا هداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم، وزادت آيات على هذا السبب العام بسبب خاص مرتبط بها دون غيرها، وهذا السبب الخاص هو الذي يبحثه العلماء تحت مبحث "أسباب النزول"، وعليه فآي القرآن قسمان:

– الأول: ما نزل من الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنما هو مرتبط بالسبب العام وهو هداية الناس، وهذا القسم هو أكثر آيات القرآن الكريم.

– الثاني: قسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة يسميه العلماء "سبب نزول الآية" وآيات هذا القسم هي الأقل⁽⁶⁾. جملة تلك الأسباب الخاصة هي ما اصطلح على تسميته "سبب النزول أو سبب التزيل": «وهو

(1) – صبحي الصالح، "مباحث في علوم القرآن"، (186).

(2) – السعدي، "تفسير الكريم"، (186).

(3) – على الراجح في المسألة قال القرطبي هذا القول: «أَعْرِفْ وَأَكْتَرُ وَأَصَحُّ وَأَشْهَرُ» «الجامع لأحكام القرآن» (3/375)، وانظر: "فتح الباري" لابن حجر (8/205)، و"الإتقان" للسيوطي (1/101-102).

(4) – وهي قراءة: الحسن البصري كما في "المختسب" لابن جني (1/145).

(5) – ابن جني، "المختسب"، (1/145)، وانظر: "الحرر" لابن عطية (1/378)، و"الجامع" للقرطبي (3/376).

(6) – فهد الرومي، "دراسات في علوم القرآن"، (135). وانظر: "الإتقان" للسيوطي (1/107)، "الفوز الكبير" للدهلوي (31).

ما نزلت الآية أو الآيات تتحدث عنه أيام وقوعه»⁽¹⁾، ونحو ذلك. وهذه الأسباب في الحقيقة: «ما هي إلا مناسبات لا أسباب حقيقة، وإن سميت أسبابا على طريقة التسامح والتجاوز»⁽²⁾، فليس نزول القرآن الكريم متوقفا على وجود تلك الحوادث، وإنما جعلها الله واقعة قدرا، وأنزل القرآن الكريم إثرها بيانا لشرعه، وإنفاذا لحكمه، على مقتضى حكمته حالا ومآلا، ولذلك المعنى أيضا اتفقت كلمة أهل العلم: «على أن ما يدل عليه الكلام القرآني، هو الذي يؤخذ به، على ما في دلالة من عموم واتساع، ... وهو معنى قول علماء أصول الفقه: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»⁽³⁾.

ومن ذينك القسمين نتلمس بعض معالم رحمة الله بخلقه في تنزيل القرآن، وأسبابه، فلئن كان تنزيل آي الذكر الحكيم ابتداء من غير سبب قد ظهرت فيه معالم رحمة الله بخلقه في هدايتهم، وعنايته بهم، توجيهها وإرشادها، عقيدة، وشريعة، وآدابا، وقصصا، ووعدا، ووعيدا. فإن معالم رحمته ومزيد عنايته في ما نزل بسبب أشد ظهورا، وأكثر وضوحا، بل هو الحال الذي تقصر عنه عبارات الفصح تصويرا لتلك العناية الفائقة من الرحمن سبحانه بعباده، حين تسير أحداث البشرية على ما يوافق سابق قضاء الله وقدره، فتأتي آيات الذكر توضح شرعه ومرضاته، في حكمة بالغة، ومقاصد باهرة، رحمة بعد رحمة، عامة فخاصة، خاصة فأخص، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة].

تلك الأسباب التي ترى فيها البصائر الحية متابعة الله تعالى حياة خلقه وعباده، وتغيرها، وإنعامه سبحانه عليهم بما يهديهم إلى سبيله القويم، وصراطه المستقيم، وبما يصحح لهم العقائد والأحوال، الظاهرة والباطنة، من الأقوال والأفعال، فاستحضار العبد نظر الله إليه، ومراقبته له، ومتابعته أحواله من المقامات التي تطرب لها قلوب المقربين، وتخضع لها قلوب أصحاب اليمين، وتخضع لها رقاب المكذابين.

تلك الأسباب التي على اختلاف ما يتزل إثرها من آي الذكر الحكيم تملأ قلوب المؤمنين يقينا باستشعار رقابة الله لهم، ويجس منها الكفار لوعة مما أدركوا من قدرة الله عليهم، وإحاطته بهم، وفي ذلك من الزجر لهؤلاء، والرأفة بأولئك ما يعجز عن إدراك كنهه كل حكيم، فهو ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

تلك الأسباب التي أوضحت لمن نزلت الآيات فيهم مدى رعاية الله سبحانه لهم، ورحمته بهم، وهو يسوقهم إلى العمل قدرا، ويبينه لهم شرعا وأمرا، ثم يتوب عليهم ويمحو عنهم وزرا، تلك التي أعلت مقام الصادقين تخليدا لأسمائهم، وإشادة بأعمالهم، ونشرا لفضلهم. بل لقد وافق الرب الجليل بعضهم حتى أنزل الآيات على

(1) - وهو ما اختير تعريفا لسبب النزول، انظر: "الإتقان" للسيوطي (1/116)، وأما علم أسباب النزول فهو العلم المهتم بهذه المسائل.

(2) - محمد الفاضل بن عاشور، "التفسير ورجاله"، (15)، وغانم قدوري، "محاضرات في علوم القرآن"، (211)، إذ الأسباب في تعريفها: ما يُوجد المسبب، سواء أكان السبب تاما أو غير تام، انظر: "التعريفات" للشريف الجرجاني (69).

(3) - محمد الفاضل بن عاشور، "التفسير ورجاله"، (15).

ألفاظ مقالهم⁽¹⁾، فياهول المقام لمن تأمله، وما أعظم إحسان الجليل عليهم لمن تدبره، أن يوافق السيد العظيم المستوي على عرشه فوق خلقه، أن يوافق قول أحد عبيده الضعفاء كلمة كلمة، وحرفا حرفا، إنه لإحسان عظيم من السيد، رحمة وامتنان، وإنه لمقام كريم لذلك العبد الضعيف، خشوعا واستبشارا و يقينا.

تلك الأسباب التي تحمل في طياتها ما يرسخ في النفوس عقيدة التوحيد، وانفراد الله القدير بالملك والتدبير، كيف لا وهم يرون أفضل الخلق رسول الهدي صلى الله عليه وسلم يقف عن كل حديث، يقف عن أي تقدم بين يدي الله الواحد القهار، وهو ينتظر حكمه تعالى فيما يعتريه من أسئلة وأحوال، قد اشتد على المؤمنين في بعضها الحال، وقد علم الله لهم بما يُنزل يُسر المآل.

ثم إن في ارتباط نزول الآيات بمناسبة معينة، حكمة تشريعية، وتربوية عظيمة، تجعل من الحكم الذي تتضمنه تلك الآيات تجربة واقعية، وتطبيقا عمليا في المجتمع، يتم تحت نظر النبي صلى الله عليه وسلم وتوجيهه، ويدرك حكمة التشريع الذي تتضمنه تلك الآيات كل من كان شاهدا وقت نزولها، وكل من وقف على تلك المناسبة وعرف قصتها، فتزول الحكم وقت الحاجة إليه يكون أبعد أثرا في نفوس المخاطبين، ويكونون أكثر استجابة له⁽²⁾، وأكثر استحضارا له متى تشابه الحال، وأسير عليهم حفظا متى تشابهت الألفاظ، وأكثر تمرسا وإدراكا لمعاني العبارات، متى زاغت عنها الأعين الناظرات⁽³⁾.

كما أن في إدراك حكمة الله سبحانه في شريعته المستفاد من أسباب النزول، في ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن، أما المؤمن فيزداد إيمانا على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام ومن أجلها جاء هذا التزليل. وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفًا حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان لا على الاستبداد والتحكم والطغيان خصوصا إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد⁽⁴⁾.

هذا، ومن فروع باب أسباب النزول المهمة فرعان، أنه على بعض معالم الرحمة فيهما:

فأما أولهما: فهو (تعدد الآيات النازلة، واتحاد السبب)⁽⁵⁾، وفي ذلك من الفضل ومزيد الرحمة والامتنان ما هو ظاهر للعيان، فما من شك أن كل آية نزلت قد زفت للمؤمنين ألوان البشائر، تلاوة وترتيلا، تدبرا وتأملا، حُكما وتشريعا، امتثالا وانقيادا، اغتناما وأجرا، كما أن فيه من الإقناع وظهور الحجج المتعددة، وتام

(1) - وبوب عليها السيوطي بقوله: « فيما أنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة » "الإتقان" (127/1).

(2) - غانم قدوري، "محاضرات في علوم القرآن"، (36)، ومناع القطان، "مباحث في علوم القرآن"، (75).

(3) - الزرقاني، "مناهل العرفان"، (95/1).

(4) - الزرقاني، "مناهل العرفان"، (91/1).

(5) - السيوطي، "الإتقان"، (124/1).

البيان ما هو ظاهر، ترتقي به قلوب المؤمنين في معارج الهدى والإيمان، وأما غيرهم فزادتهم رجسا إلى رجسهم.

وأما ثانيهما: فهو (ما تكرر نزوله)⁽¹⁾، وفي هذا التكرر مزيد إنعام وفضل وإحسان، من الرب الرحمن، كيف لا فهو أعظم دلالة على عظمة ما نزل وتكرر، لئلا تغفل عنه القلوب، والأبصار، فيترقبوا غيره تنزيلا، وهو بين أيديهم واضحا دليلا، كيف لا وهو من أوضح تجليات رحمة المنعم إذ يُذكر عباده ما ينفعهم، ويترل عليهم ما نزل فيستقر به حفظهم، وتتمكن به في الاستنباط ملكاتهم، وهم يرون اتفاق الأحكام في اختلاف الأحوال والأيام، وهو ما يوضح لهم الحكم الربانية، والمقاصد الدينية.

وينبه أخيرا إلى أن مما تتنازعه مباحث الموضوع، ذكر أول ما نزل من القرآن، وآخر ما نزل منه، ومعالم الرحمة فيهما، فقرابتهما بمبحث أسباب النزول وأحواله كأبناء العمومة، وقراءة أول ما نزل من القرآن المكي، وقراءة آخر ما نزل من القرآن المدني قرابة ظاهرة معلومة، ولمقام ذلك التنازع قدمت ذكرهما في المبحث السابق، (معالم الرحمة في المكي والمدني)، على اعتبار أن أول ما نزل من القرآن الكريم لم يكن له سبب خاص، وكذا آخر ما نزل منه على الأرجح كما تقدم.

المبحث الخامس: معالم الرحمة في المنسوخ والناسخ⁽²⁾.

يهتم علماء القرآن⁽³⁾ بتقديم الناسخ الذي استقر حكمه شرعا، أما بحثنا فنظره إليهما من حيث التنزيل، فسبق المنسوخ لا يحتاج إلى دليل، أنزلهما الله لحكمة، وضمّنهما معالم الرحمة، ومع اختلاف الأئمة في هذا المبحث طويلا تفريعا وتأصيلا، فقد اتفقوا على أصله لدلالة النصوص الشرعية عليه، ومما جاء فيه من آي التنزيل الحكيم، قول الرحمن الرحيم: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: 106]، وقال

(1) - عند من أجاز ذلك من أهل العلم، كابن الحصار، والزرکشي، والسيوطي، انظر: "الإتقان" (1/130)، وهو من المسائل الجديدة بالبحث والتمحيص، لارتباطها بجملة من العلوم الأخرى، كالتشابه اللفظي للقرآن، وعلم القراءات، وأسباب النزول.

(2) - كلاهما من مادة (نسخ) وهي في اللغة لمعنى: النقل والإزالة والتغيير، قال ابن فارس: «أصل واحد، إلا أنه مختلف في قياسه. قال قوم: قياسه رفع شيء وإثبات غيره مكانه. وقال آخرون: قياسه تحويل شيء إلى شيء» "معجم المقاييس" (5/424)، وانظر: "القاموس" (261)، ويطلق الناسخ اسم الفاعل على الشارع، والنص الناسخ، والحكم الناسخ، وأما المنسوخ اسم المفعول فواحد، وفي اصطلاح أهل العلم النسخ هو: «رفع الحكم الثابت بخطاب متقدم بخطاب متأخر عنه» "المهذب في علم أصول الفقه" لعبد الكريم النملة (2/530)، وانظر أيضا:

(3) - مبحث النسخ من المباحث المشتركة بين علوم القرآن الكريم، وعلم أصول الفقه، وهو في الثاني أوسع لاعتناؤه بالنسخ في نصوص السنة النبوية، ولمقام هذا التداخل اكتسى هذا البحث صعوبة أخرى في تعدد مصادره ومطانه، وكثرة مادته، ولذا اقتصر فيه على ما تضمنته كتب علوم القرآن غالبا.

سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل].

وبعيدا عن الاختلافات الواسعة في باب الناسخ والمنسوخ، نقصر الكلام هنا على ما يناسب المقام، إشارة إلى أوجه رحمة الله بخلقه في تزييله الناسخ عقب المنسوخ، وقد أشار علماءنا إلى بعض ذلك ضمن أوجه الحكمة من النسخ عموما، وخصوصا، وهو ما سنشير إليه فيما يلي مع شيء من الزيادة، فأقول:

قد نبه الأئمة رحمهم الله على مدى الرحمة الإلهية البارزة في نسخ الله تعالى الأحكام بعضها ببعض، ولهم في ذلك أقوال مأثورة، منها: قول الشافعي رحمه الله (ت 204هـ) في "الرسالة": «وأنزل عليهم الكتاب تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة، وفرض فيه فرائض أثبتها، وأخرى نسخها، رحمة لخلقه، بالتخفيف عنهم، وبالتوسعة عليهم، زيادة فيما ابتدأهم به من نعمه. وأثابهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم: جنته، والنجاة من عذابه؛ فعمّتهم رحمته فيما أثبت ونسخ، فله الحمد على نعمه»⁽¹⁾، وقال السخاوي علم الدين (ت 643هـ): «وحكمة النسخ اللطف بالعباد وحملهم على ما فيه إصلاح لهم»⁽²⁾، فالنسخ ليس عبثا من الله بل هو الحكمة منه سبحانه المنطوية على: «إِرَادَةَ الصَّلَاحِ لِلْعِبَادِ وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ الْعَاقِبَةَ فِي ذَلِكَ وَعَلِمَ وَقْتَ الْأَمْرِ بِهِ -المنسوخ- أَنَّهُ سَيَنْسَخُهُ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ»⁽³⁾. ثم قد تناول علماءنا هذا المبحث درسا من جهات أهمها:

أولا: من حيث النصوص الشرعية، وأيها ينسخ الآخر.

ثانيا: من حيث الحكم والتلاوة للنصين المنسوخ والناسخ، بقاء وعدما.

ثالثا: من حيث حكم البديل ثقلا وخفة، مقارنة بالمنسوخ.

رابعا: من حيث البديل في النسخ، وجودا على ما هو الأكثر، وعدما على ما هو النادر.

ضمن هذه النقاط الأربعة تكلم علماءنا في موضوع حكم النسخ، منهم: الفيروز آبادي في "بصائر ذوي التمييز"⁽⁴⁾، والزركشي في "البرهان"⁽⁵⁾، والسيوطي في "الإتقان"⁽⁶⁾، واستجمع كل ذلك الزرقاني في "مناهل العرفان"، بتفصيل وطول بيان، وباستثناء النقطة الأولى، أعرض فيما يلي ما ذكره علماءنا من حكم النسخ، ومعالج رحمة الله بخلقه فيه، مع شيء من الاختصار، وابتداء بالأخيرة منها، لفا ونشرا معكوسا أقول:

(1) - الشافعي، "الرسالة"، (106)، وانظر أيضا: "قلائد المرجان" لمربي بن يوسف الكرمي (19).

(2) - السخاوي، "جمال القراء"، (335/1).

(3) - ابن النحاس، "الناسخ والمنسوخ"، (62/1).

(4) - "بصائر ذوي التمييز"، (121/1).

(5) - "البرهان"، (37/2، 39).

(6) - "الإتقان"، (67/3، 77، 81).

أولاً: إن النسخ إلى غير بدل رحمة من الله في ابتلاء خلقه، واختبار امتثالهم، زيادة في الحسنات، ورفعاً للدرجات، مع ما في النسخ من تخفيف، وإنقاص للتكاليف⁽¹⁾. وأما ما كان نسخاً إلى بدل فذلك الذي كثرت أفراده في القرآن الكريم، وفيه من وجوه الرحمة ودلائلها، ما في النقطتين الآتيتين أكشف عنها.

ثانياً: أجاب هبة الله بن سلامة رحمه الله (ت 410هـ) عن سؤال في آية سورة البقرة ﴿نَاثٍ يَخِيَرُ مِّنْهَا﴾، وضمن جوابه بيان الحكمة المتعلقة بالناسخ والمنسوخ من حيث ثقل الحكم وخفته، فقال: «فَالْجَوَابُ أَنَّ مَعْنَى: ﴿يَخِيَرُ مِّنْهَا﴾ أَي أَنْفَعُ مِنْهَا لِأَنَّ النَّاسِخَ لَا يَخْلُو مِنْ إِحْدَى النِّعَمَتَيْنِ: إمَّا أَنْ يَكُونَ أَثْقَلُ فِي الْحُكْمِ فَيَكُونُ أَوْفَرُ فِي الْأَجْرِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَخْفَ فِي الْحُكْمِ فَيَكُونُ أَيْسَرُ فِي الْعَمَلِ»⁽²⁾، وفي كل منهما رحمة من الله بخلقه واضحة المعالم، وصور الزرقاني رحمه الله تلك الحكم والرحمات في أسلوب بديع، مضيفاً للوجه الذي يتساوى في المنسوخ وبدله حكماً، في كلام أنقله بحروفه، قال: «من هنا جاءت الشريعة إلى الناس تمشي على مهل متألفة لهم متلطفة في دعوتهم متدرجة بهم إلى الكمال رويداً رويداً، صاعدة بهم في مدارج الرقي شيئاً فشيئاً، منتهزة فرصة الألف والمران والأحداث الجادة عليهم، لتسير بهم من الأسهل إلى السهل، ومن السهل إلى الصعب، ومن الصعب إلى الأصعب، حتى تم الأمر ونجح الإسلام نجاحاً لم يعرف مثله، في سرعته وامتزاج النفوس به ونهضة البشرية بسببه!». تلك الحكمة على هذا الوجه تتجلى فيما إذا كان الحكم الناسخ أصعب من المنسوخ، كموقف الإسلام في سموه ونبله من مشكلة الخمر في عرب الجاهلية بالأمس.

أما الحكمة في نسخ الحكم الأصعب بما هو أسهل منه، فالتخفيف على الناس ترفيها عنهم، وإظهاراً لفضل الله عليهم، ورحمته بهم، وفي ذلك إغراء لهم على المبالغة في شكره، وتمجيده، وتحبيب لهم فيه، وفي دينه. وأما الحكمة في نسخ الحكم بمساويه في صعوبته، أو سهولته فالابتلاء، والاختبار ليظهر المؤمن فيفوز، والمنافق فيهلك، ليميز الخبيث من الطيب»⁽³⁾.

ثالثاً: تلك العلاقة الرابطة بين حكم النص وتلاوته، بقاء وعدما، وهي التي جعل العلماء قسمتها على ثلاثة أضرب⁽⁴⁾: ما يُنسخ تلاوة وحكما، ما يُنسخ تلاوة وبقي حكمه، وعكسه ما يُنسخ حكماً وبقي تلاوة. فأما أولها: فكان بلا ريب رحمة بالناس، ورفقا بهم في إصلاح أحوالهم بالتدرج في تكليفهم، فلما انتهى أمدّه، وتحققت غايته، رفع الحكم والتلاوة ليحل محلّهما غيره من الأحكام بعدما قهّأت النفوس، وأقبلت القلوب على شرع علام الغيوب.

(1) - انظر: "مناهل العرفان" للزرقاني (172/2).

(2) - هبة الله بن سلامة، "الناسخ والمنسوخ"، (28).

(3) - الزرقاني، "مناهل العرفان"، (153/2)، وانظر: "الناسخ والمنسوخ" لابن حزم (8)، و"المصنف" لابن الجوزي (12).

(4) - انظر: "البرهان" للزركشي (35/2)، و"الإتقان" للسيوطي (70/3)، وهي على هذا الترتيب التصاعدي من حيث كثرتها، فأولها فأولها أقلها، وآخرها أكثرها وهذا الضرب هو الذي في الكتب المؤلفة في هذا العلم، قال السيوطي: «وهو على الحقيقة قليل جداً وإن أكثر الناس من تعداد الآيات فيه» "الإتقان" (71/3).

وأما ثانيهما: وهو نسخ التلاوة دون الحكم، ففيه من أوجه الرحمة والحكمة ما تتضمنه سائر أفعال الله تعالى، الفتح بالعلم على من علمها، وليس جهلها نافيا لوجودها⁽¹⁾، ومما ظهر لي:

– بيان كمال قدرة الله تعالى، وتمام أمره فهو الذي يُبقى ما يشاء ويرفع ما يريد، وفي رفع ما رُفع تذكير للعبيد ببقاء ما بقي، فيُعتنى به تلاوة وحفظا، قبل أن يأذن الله برفع جميعه آخر الزمان، فالقرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود، وذاك البيان تضمن تعريفا للعباد بصفات الله وأفعاله، فكفى به منة ورحمة، أن يتفضل الجيد بتعريف نفسه للعبيد.

– أن في ذلك اختبارا وابتلاء⁽²⁾، فما أعظمها من رحمة لمن نجح حين اختبار، وحين الابتلاء صبر، وهل في الابتلاء والاختبار إلا رفع الدرجات، ومزيد الحسنات، وتلك بعض وجوه الرحمت، وهل كان إعمال الناسخ وإهمال المنسوخ، إلا في جيل الرسوخ، جيل القرآن والتزيل، فكان عليهم بالمنسوخ الابتلاء، وبقي لهم ولنا بالناسخ كل صفاء، رحمتان لهم واحدة لمن جاء بعدهم، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة].

وأما الثالث من الأقسام، وهو أكثرها فهو يكشف سياسة الإسلام الرشيدة الحكيمة «لناس حتى يشهدوا أنه هو الدين الحق، وأن نبيه نبي الصدق، وأن الله هو الحق المبين العليم، الحكيم الرحمن الرحيم، يضاف إلى ذلك ما يكتسبونه من الثواب على هذه التلاوة، ومن الاستمتاع بما حوته تلك الآيات المنسوخة من بلاغة، ومن قيام معجزات بيانية، أو علمية أو سياسية بها»⁽³⁾، يضاف إلى أوجه الرحمة والحكمة تلك «أن القرآن كما يُتلى يُعرف الحكم منه، والعمل به، يُتلى لكونه كلام الله تعالى فيثاب عليه فتركت التلاوة لهذه الحكمة»⁽⁴⁾، زيادة إلى ذلك «أن النسخ غالبا يكون للتخفيف فأبقيت التلاوة تذكيرا بالنعمة ورفع المشقة»⁽⁵⁾.

وإذ أكتفي – على استحياء – في هذا المبحث الطويل بما تقدم من كلمات قليلات، أتم ذلك بتبيين: أولهما: لقد جعل رب العالمين الإسلام الدين القويم، مهيمنا على الأديان جميعها، وناسخا لشرائعها، فكان التزيل كتاب الإسلام، رحمة لجميع الأنام، منزلا على سيد المرسلين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء]. وقد أخذ بعض المفسرين⁽⁶⁾ هذا المعنى الحق العجيب من قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد].

(1) – الزرقاني، "مناهل العرفان"، (170/2 – 171).

(2) – الزركشي، "البرهان"، (37/2)، وهو مضمون ما نقله عن ابن عقيل صاحب "الفنون" جوابا عن حكمة هذا النوع من النسخ.

(3) – الزرقاني، "مناهل العرفان"، (153/2).

(4) – الزركشي، "البرهان"، (39/2).

(5) – الزركشي، "البرهان"، (39/2). وانظر: "الإتقان" للسيوطي (77/3 – 78).

(6) – انظر: "الدر المنثور" للسيوطي (664/4)، و"مناهل العرفان" للزرقاني (144/2، 152).

ثانيهما: أن ما يُذكر من أوجه رحمة وحكم لأنواع النسخ، إنما هي على الإجمال، وتحت كل آية ناسخة ومنسوخة تنطوي حكم ورحمات خاصة بها، لا تطبق العقول إدراكها إحاطة، وتعجز الفصاحة عن تصويرها كاملة، فهي من علم الله الجليل، فأني الإحاطة به للعقل العليل، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ٣١﴾ [طه].

المبحث السادس: معالم الرحمة في الأحرف السبعة.

وسبب إيراد ضمن مباحث هذه الورقة البحثية، ما جاء صريحاً عن المصطفى صلى الله عليه وسلم حين قال لقراءة كل من عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم رضي الله عنهما: «هكذا أنزلت»⁽¹⁾، أو «كذلك أنزلت»⁽²⁾. فمرد التباين فيها إلى التنزيل⁽³⁾، فليس هو على البحث بدخيل، قال ابن قتيبة رحمه الله (ت 276): «وكل هذه الحروف كلام الله تعالى نزل به الروح الأمين على رسوله عليه السلام، وذلك أنه كان يعارضه في كل شهر من شهور رمضان بما اجتمع عنده من القرآن، فيحدث الله إليه من ذلك ما يشاء، وينسخ ما يشاء»⁽⁴⁾.

ومعلوم لدى الدارسين أن مبحث الأحرف السبعة «مبحث طريف وشائق، غير أنه مخيف وشائك»⁽⁵⁾، ومع تواتر النصوص النبوية في معنى الأحرف السبعة، فقد اختلف في تحديد معناها اختلافاً قل نظيره، ومن بين تلك الاختلافات، وددت إخراج معالم الرحمة خالصات سائغات، اعتماداً على الأحاديث النبوية الصحيحة، وما نص عليه الأئمة الهداة، فمما صح في باب الأحرف السبعة:

ما جاء في حديث عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم رضي الله عنهما، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لهما: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»⁽⁶⁾، أي من هذا القرآن المتزل على سبعة أحرف، فإنه لم يكن كذلك إلا تيسيراً.

(1) - أخرجه البخاري (2287، 4754، 6537)، ومسلم (818)، وغيرهما

(2) - أخرجه البخاري (4706، 7111)، وغيره.

(3) - هل هو مطرد في الاختلاف جميعه، اختلف في ذلك، وأولى الأقوال بالقبول ما ذهب إليه السمرقندي رحمه الله في "بستان العارفين" (327)، القائل بالتفريق بين القراءات التي تباينها له أثر في المعنى والتفسير كـ: (ملك، ومالك، وَيَطْهَرْنَ وَيَطْهَرْنَ)، وبين التي تباينها لغات فقط كـ: (البيوت، البيوت)، وانظر لهذه المسألة: "البرهان" للزركشي (326/1)، و"القراءات القرآنية" لعبد الحليم قابه (47-48).

(4) - ابن قتيبة، "تأويل مشكل القرآن"، (32).

(5) - الزرقاني، "مناهل العرفان"، (116/1).

(6) - أخرجه البخاري (2287) وفي مواضع أخرى، ومسلم (818).

يوضح ذلك ما جاء في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه لما ترفع مع من خالفاه في القراءة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن ربي أرسل إلي أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هون على أمتي»⁽¹⁾، وفي رواية: «خفف عن أمتي»⁽²⁾، ففي زيادة الأحرف مزيد قهوين وتيسير وتخفيف على الأمة الحمديّة، وفي ذلك من الرحمة الإلهية بهذا التزليل للأحرف ما هو ظاهر، ووجه هذا الطلب للتخفيف، وسببه بينته الروايات الأخرى، وجاء فيها قوله صلى الله عليه وسلم: «إن أمتي لا تطيق ذلك»⁽³⁾، وفي رواية: «لا تستطيع ذلك»⁽⁴⁾، إن كُلفت بقراءة القرآن على حرف وحرفين، ولم تطق أمته صلى الله عليه وسلم ذلك لما كان مبعوثاً إلى الناس جميعاً إلى: «أمة أميين منهم: العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط»⁽⁵⁾.

إن وضوح هذه النصوص النبوية في بيان معالم الرحمة في تزليل الأحرف السبعة⁽⁶⁾ لن يشينا عن استعراض كلام بعض أهل العلم توضيحاً لمقصود المبحث، فمن ذلك:

قول ابن قتيبة رحمه الله (ت 276هـ): «... وييسر على عباده ما يشاء. فكان من تيسيره أن أمره بأن يُقرئ كل قوم بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم فالهذليّ يقرأ... والأسديّ يقرأ: ... والتميميّ يهمز. والقرشيّ لا يهمز... ولو أن كل فريق من هؤلاء، أمر أن يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً - لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة. فأراد الله، برحمته ولطفه، أن يجعل لهم متسعاً في اللغات، ومتصرفاً في الحركات، كتيسيره عليهم في الدين»⁽⁷⁾.

قول أبي عمرو الداني رحمه الله (ت 444هـ): «وأما وجه إنزال القرآن هذه السبعة أحرف وما الذي أراد تبارك اسمه بذلك فإنه إنما أنزل علينا توسعة من الله تعالى على عباده ورحمة لهم وتخفيفاً عنهم عند سؤال النبي صلى الله عليه وسلم إياه لهم ومراجعته له فيه لعلمه صلى الله عليه وسلم بما هم عليه من اختلاف اللغات واستصعاب مفارقة كل فريق منهم الطبع والعادة في الكلام إلى غيره فخفف تعالى عنهم وسهل عليهم بأن أقرهم على مألوف طبعهم وعادتهم في كلامهم»⁽⁸⁾.

(1) - أخرجه مسلم (1856)، وأحمد في "المسند" (21171) وغيرهما.

(2) - أخرجه ابن جرير في "جامع البيان" (37/1).

(3) - أخرجه مسلم (1856)، وأحمد في "المسند" (21172)، وأبو داود في "السنن" (1478)، وغيرهم.

(4) - أخرجه ابن جرير في "جامع البيان" (38/1).

(5) - أخرجه الترمذي في "جامعه" (2944)، وأحمد في "المسند" (21204)، وغيرهم.

(6) - عبد العزيز القاري، "حديث الأحرف السبعة"، (81).

(7) - ابن قتيبة، "تأويل مشكل القرآن"، (32).

(8) - الداني، "الأحرف السبعة"، (31).

وثمة كلام كثير لغيرهما من الأئمة كالطحاوي (ت 321هـ) في "شرح مشكل الآثار"⁽¹⁾، وأبي شامة (ت 665هـ) في "المرشد"⁽²⁾، والزرکشي (ت 794هـ) في "البرهان"⁽³⁾، وغيرهم. خلاصتها أن مبحث الأحرف الأحرف السبعة «يرينا مظهرًا من مظاهر رحمة الله، وتخفيفه على عباده، وتيسيره لكتابه على كافة القبائل العربية بل على جميع شعوب الأمة الإسلامية من كل جيل وقبيل، حتى ينطقوا به لينة ألسنتهم سهولة لهجاتهم برغم ما بينهم من اختلاف في اللغات، وتنوع في الخصائص والميزات»⁽⁴⁾.

كانت تلك الأحرف كفيلة بتحقيق مقصودها من التيسير على الأمة يومها، ورحمة من البارئ سبحانه عليها بما، مع ما حملته من فوائد وعوائد لمن بعدها، فقد كانت مع اقتنائها بغيرها من ظروف الزمان والمكان، ورعاية الحال والمآل سببا في ظهور رحمت أخرى، وفوائد تترى، فامتزاج الأحرف السبعة مع العرضة الأخيرة، وسير الجميع مع عوامل الزمان والمكان، وتغير أحوال من جاء بعد زمن التزليل، اقتضى جمع القرآن الكريم زمن عثمان رضي الله عنه مقتصرًا على بعض تلك الأحرف، ومع امتداد الزمان، وميل النفوس للاقتصار، استقر الأمر على ما كان للعشرة القراء من الاختيار، وحملت تلك القراءات في طياتها عبقا من رحمت البارئ المتجددة على أمة الإسلام عبر تعاقب الأيام، فهاهي القراءات القرآنية تُفجّر للباحثين ينابيع العلم، وروافد الفقه، يهزون أصلها فكرا، فتساقط عليهم أنواع العلوم لغة وفقها، ثمرا جنيا، تنوع في الألفاظ والمباني، واتساع في المدارك والمعاني، في انضمام وائتلاف، وتنوع في الاختلاف، ترينا في ملامحها معالم رحمة مترلها، مستوجبة بكل حرف منها مزيد حمد وشكر له عليها.

خاتمة: لأهم النتائج والتوصيات.

أجعلها في نقاط مختصرة كالآتي:

الكلام في موضوع تزليل القرآن الكريم لا ينفك بحال عن مسألة كلام الله تعالى والخلاف فيها، فمن الضروري بالباحث أن يعلم هذه المسألة علما دقيقا ليحسن التفريع فيها، فرما يغفل الذهن في التفريع فيخالف التأصيل.

(1) - "شرح مشكل الآثار"، (124/8).

(2) - "المرشد الوجيز"، (90).

(3) - "البرهان"، (227/1).

(4) - الزرقاني، "مناهل العرفان"، (116/1).

إن الكلام في موضوعات القرآن الكريم وتزييله كلام في أمور الغيب، فلا يقال فيها إلا ما دلت عليه نصوص الوحي، وما وراء ذلك إلا القول على الله بلا علم.

يلحظ المتأمل لأحوال نزول القرآن الكريم اختصاص جيل التزيل بمزيد الرحمة والعناية في كل فرع من فروع البحث، ومباحثه الدالة على الرحمة في تزيل القرآن ك: المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والأحرف السبعة، ونحوها.

إن المتأمل والمتصفح لبعض كتب علوم القرآن يلحظ فيها جفاف العبارات، وخلوها عن ربط تلك العلوم بالجانب التربوي الروحي، الذي يرقق القلوب، ويشعرها ببربانية القرآن الكريم، وأن مصدره الإله العظيم الجليل.

ومن التوصيات المقترحة أن توضع دراسة لجملة من المسائل:

كمسألة تنجيم القرآن، واستجماع الآيات الدالة إشارة عليه صراحة وإشارة، وما يتبعه من مسائل.

ومسألة تكرار نزول الآيات القرآنية.

وكذا بعض مسائل تزيل القرآن الكريم، ومن الذي أنزل القرآن من اللوح إلى بيت العزة؟ هل هو جبريل؟ أو الملائكة المطهرون؟

وهل ترتيب آيات الذكر متفق بين اللوح وبيت العزة والمصحف؟

وهل صحيح أن ما في بيت العزة يوافق رسمه ما مصاحفنا؟

كلها مسائل تحتاج إلى بسط وبيان، ولا أدعي عدم توفر ذلك غير أنني لم أقف على ما تعلق به بحثاً وتمحيصاً.

هذا آخر ما رأيت تسطيراً، ويعلم الله أنني لم أرتضه تحبيراً وتحريراً، لاشتغال الخل والبال، بحركات العلة وعدم المناسبة والاستعجال، وعدم تيسر بعض الحال، والله المسؤول وهو ذو الرحمة، أن يرحم عبداً أراد إرشاداً وإظهاراً لبعض صنوف رحماته الكثيرات، ونعمه السابغات، وآلائه الواصلات، فاللهم صلنا بك وبالقرآن الكريم تزييلك، وبمحمد نبيك، وارحمنا برحمتك، إنك جواد كريم، والحمد لله أولاً وآخراً، مُسرّاً وجاهراً.

كشاف أهم المصادر والمراجع:

كتب التفسير وعلوم القرآن:

آدم بومبا، "أسماء القرآن الكريم"، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط1، 1430هـ - 2009م.

الآلوسي، "روح المعاني"، ت علي عطية، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ .

البيضاوي، "أنوار التزيل"، ت المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1418هـ .

ابن جني، "المختسب في القراءات الشواذ"، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1420هـ - 1999م .

- ابن الجوزي، "زاد المسير"، ت عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط1، 1422هـ.
- حكمت بشير، "الصحيح المسبور"، دار المآثر المدينة النبوية، ط1، 1420هـ - 1999م.
- ابن أبي حاتم، "النفيس"، ت أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط3، 1419هـ.
- الدهلوي، "الفوز الكبير"، عرّبه سلمان الندوي، دار الصحوة القاهرة، ط2، 1407هـ - 1986م.
- الداني، "الأحرف السبعة"، ت عبد المهيم طحان، مكتبة المنارة مكة، ط1، 1408هـ.
- الرازي، "مفاتيح الغيب"، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420 هـ.
- الزجاج، "معاني القرآن"، ت عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب، ط1، 1408 هـ - 1988 م.
- الزرقاني، "مناهل العرفان"، ت فواز زمري، دار الكتاب العربي، ط1، 1415هـ، 1995م.
- الزركشي، "البرهان"، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، 1391م.
- الزمرخشي، "الكشاف"، دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ.
- ابن أبي زمنين، "تفسير القرآن"، ت حسين بن عكاشة ومحمد الكثر، الفاروق الحديثة، ط1، 1423هـ - 2002م.
- السخاوي، "جمال القراء"، ت مروان العطية ومحسن خراية، دار المأمون للتراث، ط1، 1418هـ - 1997م.
- السعدي، "تيسير الكريم الرحمن"، ت اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000 م.
- السمرقندي، "بحر العلوم"، .
- السيوطي، "الدر المنثور في التفسير بالمأثور"، دار الفكر.
- السيوطي، "الإتقان"، ت محمد أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ - 1974م.
- الشنقيطي، "أضواء البيان"، دار الفكر، 1415 هـ - 1995م.
- أبو شهبه، "المدخل لدراسة القرآن الكريم"، مكتبة السنة القاهرة، ط2، 1423هـ - 2003م.
- الشوكاني، "فتح القدير"، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط1، 1414هـ.
- أبو شامة، "المرشد الوجيز"، ت قولاج، دار صادر، 1395هـ - 1975م.
- صبيح الصالح، "مباحث في علوم القرآن"، دار العلم للملايين، ط24، 2000 م.
- ابن ضريس، "فضائل القرآن"، ت غزوة بدير، دار الفكر، ط1، 1408 هـ - 1987م.
- الطبري، "جامع البيان"، ت أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م.
- الطاهر ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، الدار التونسية للنشر تونس، 1984 هـ.
- عبد الحليم قابه، "القراءات القرآنية"، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999م.
- عبد العزيز القاري، "حديث الأحرف السبعة"، مؤسسة الرسالة، ط1، 1432هـ - 2002م.
- عبد الفتاح القاضي، "القراءات الشاذة وتوجيهها"، دار السلام، ط2، 1426هـ - 2005 م.
- أبو عبيد، "فضائل القرآن"، ت مروان عطية وآخرون، دار ابن كثير، ط2، 1420هـ - 1999م.
- ابن عطية، "الخرر الوجيز"، ت عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ - 1993م.
- علي العبيد، "حفظ القرآن الكريم"، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

- أبو علي الفارسي "الحجة للقراء السبعة"، ت قهوجي وجويجي، دار المأمون، ط2، 1413 هـ - 1993 م.
- غانم قدوري، "محاضرات في علوم القرآن"، دار عمار، ط1، 1423 هـ - 2003 م.
- الفراء، "معاني القرآن"، ت أحمد النجاشي ومحمد النجار وعبد الفتاح الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، ط1.
- الفريابي، "فضائل القرآن"، ت يوسف جبريل، مكتبة الرشد، ط1، 1409 هـ - 1989 م.
- فهد الرومي، "دراسات في علوم القرآن"، ط12، 1424 هـ - 2003 م.
- الفيروز آبادي، "بصائر ذوي التمييز"، ت محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة.
- ابن قتيبة، "تأويل مشكل القرآن"، ت إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية.
- القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ت البر دوي وأطفيش، دار الكتب المصرية، ط2، 1384 هـ - 1964 م.
- ابن القيم، "النبيان في أقسام القرآن"، ت محمد حامد الفقي، دار المعرفة.
- ابن كثير، "تفسير القرآن"، ت سامي سلامة، دار طيبة، ط2، 1420 هـ - 1999 م.
- محمد أبو زهرة، "المعجزة الكبرى"، دار الفكر العربي.
- محمد بكر إسماعيل، "دراسات في علوم القرآن"، دار المنار، ط2، 1419 هـ - 1999 م.
- محمد بازمول، "القراءات وأثرها في التفسير والأحكام".
- محمد الشايع، "نزول القرآن الكريم"، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- محمد عمر حويه، "نزول القرآن الكريم"، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- محمد الفاضل بن عاشور، "التفسير ورجاله"، مجمع البحوث الإسلامية، ط2، 1417 هـ - 1997 م.
- محمد معبد، "نفحات في علوم القرآن"، دار السلام، ط2، 1426 هـ - 2005 م.
- مرعي بن يوسف الكرمي، "قلائد المرجان"، ت سامي عطا حسن، دار القرآن الكريم الكويت.
- مساعدة الطيار، "الحرر في علوم القرآن".
- مكي بن أبي طالب، "الهداية في بلوغ النهاية"، جامعة الشارقة، ط1، 1429 هـ - 2008 م.
- مناع القطان، "مباحث في علوم القرآن"، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط2، 1421 هـ - 2000 م.
- ابن النحاس، "إعراب القرآن"، دار الكتب العلمية، ط1، 1421 هـ.
- ابن النحاس، "الناسخ والمنسوخ"، ت محمد عبد السلام، مكتبة الفلاح الكويت، ط1، 1408 هـ.
- نور الدين عتر، "علوم القرآن"، مطبعة الصباح، ط1، 1414 هـ - 1993 م.
- هبة الله بن سلامة، "الناسخ والمنسوخ"، ت زهير الشاويش ومحمد كنعان، المكتب الإسلامي، ط1، 1404 هـ.
- أبو هلال العسكري، "الوجوه والنظائر"، ت محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1428 هـ - 2007 م.
- الواحدي، "البسيط"، عمادة البحث العلمي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، 1430 هـ.
- يحيى بن سلام، "التصاريف"، ت هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، 1979 م.
- كتب السنة وعلومها، واللغة وأخرى:
- أحمد بن حنبل، "المسند"، ت شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421 هـ - 2001 م.

- البخاري، "الجامع الصحيح"، ت مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، ط3، 1407هـ - 1987م.
- البيهقي، "شعب الإيمان"، ت عبد العلي حامد، مكتبة الرشد، الدار السلفية ط1، 1423 هـ - 2003 م.
- الترمذي، "الجامع"، ت بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، 1998م.
- ابن تيمية، "بيان تلبيس الجهمية"، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط1، 1426هـ.
- ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، ت المحقق: عبد الرحمن قاسم، مجمع الملك فهد، 1416هـ - 1995م.
- ابن حجر، "فتح الباري"، إ محب الدين الخطيب، دار المعرفة، 1379هـ.
- ابن حجر، "نتائج الأفكار"، حمدي السلفي، دار ابن كثير، ط2، 1429هـ - 2008م.
- الحميدي، "تفسير غريب ما في الصحيحين"، ت زبيدة محمد، مكتبة السنة، ط1، 1415هـ - 1995م.
- الدارمي، "السنن"، ت حسين سليم أسد، دار المغني للنشر والتوزيع السعودية، ط1، 1412هـ - 2000م.
- ابن دريد، "جوهرة اللغة"، ت رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، ط1، 1987م.
- أبو داود، "السنن"، ت شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل، دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ - 2009م.
- سعيد بن منصور، "السنن"، ت سعد آل حميد، دار الصميعي، ط1، 1417هـ - 1997م.
- ابن سيده، "الحكم"، ت عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، ط1، 1421هـ - 2000م.
- الشريف الجرجاني، "التعريفات"، إ مصطفى أبو يعقوب، مؤسسة الحسن المغربي، ط1، 1427هـ - 2006م.
- أبو شهبة، "السيرة النبوية"، دار القلم دمشق، ط8، 1427هـ.
- الشافعي، "الرسالة"، ت أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، ط1، 1358هـ - 1940م.
- ابن أبي شيبة، "المصنف"، ت كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، ط1، 1409هـ.
- الطحاوي، "شرح مشكل الآثار"، ت شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط1، 1415 هـ - 1494م.
- عبد الكريم النملة، "المهذب في أصول الفقه المقارن"، مكتبة الرشد، ط1، 1420هـ - 1999م.
- ابن فارس، "معجم مقاييس اللغة"، ت عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.
- الفيروز آبادي، "القاموس المحيط"، ت مركز الرسالة... مؤسسة الرسالة، ط3، 1433هـ - 2012م.
- ابن القيم، "رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه"، ت المديفر، دار عالم الفوائد.
- ابن كثير، "السيرة النبوية من البداية والنهاية"، إ مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، 1395هـ - 1976م.
- المباركفوري، "الرحيق المختوم"، دار الهلال.
- مسلم، "الجامع الصحيح"، إ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.